السجن للداعين مدرسة

اسمي محمد، ولدت في حلب ، تنقلت بين مدرستين خلال المرحلة الابتدائية، في تلك الفترة كان دوام المدرسة فوجين صباحي ومسائي ، الدوام الصباحي ينتهي الدوام عند الساعة 12 ظهراً والمسائي ينتهي عند الساعة 4:30 تقريباً ، مستواي الدراسي كان جيد في المرحلة الابتدائية لكن تراجع قليلاً في المرحلة الإعدادية بسبب عملي مع والدي الذي كان يملك معمل نسيج ، حيث كنت أنصرف من المدرسة عندما يكون دوامي صباحي عند الساعة 12 ظهراً وأذهب مباشرة للمعمل وانصرف عند الساعة 5 من المعمل وأعود للبيت ، أعمل وظائفي ومن ثم نشاهد التلفزيون الذي كان يبدأ بثه عند الساعة 6 مساء بالقرآن الكريم ومن ثم برامج الأطفال بعد ذلك نذهب للنوم ونستيقظ في اليوم التالي عند الساعة 6 صباحاً للذهاب للمدرسة ، هكذا كان روتين الحياة في تلك الأيام.

الحمد لله، كنت نشيطاً ومحبوباً من قبل والدي ووالدتي، هذه الظاهرة لم تكن غريبة، فقد كانت موجودة لدى أغلب أصدقائنا، حيث لاحظت أن 90% منهم كانوا مميزين ومرضيّين عند أهاليهم، والحمد لله، الله اختارنا من بين هؤلاء ليكون لنا دور مختلف في الحياة.

والدي رحمه الله، كان يعتمد علي كثيراً في العمل، وكان بحاجة إلى أحد أبنائه ليساعده في إدارة المعمل، في السنوات الأخيرة قبل اعتقالي، كان عمري حوالي 11 أو 12 سنة، كنت أتولى إدارة معمل والدي، بما في ذلك توظيف العمال، كما يقولون، كنت "ابن المعلّم".

والدي كان من بيئة متوسطة، لا فقيرة ولا غنية، لكنه كان شخصية معروفة في حينا في الثمانينيات، وعلاقته بالناس كانت شعبية وقوية، أما والدتي فهي من عائلة محترمة في حلب.

طفولتي لم تكن كطفولة باقي الأطفال، لم أمر بمرحلة اللعب معهم، سواء بلعبة الصياح أو ألعاب الأطفال التي كانت شائعة في أيامنا، بسبب انشغالي بالدراسة والعمل، حيث كانت أيام الأسبوع من السبت إلى الخميس مخصصة للمدرسة، أما يوم الجمعة، وهو يوم العطلة الوحيد، كنت أقضيه غالبًا في العمل، حتى أيام العطل المدرسية، كنت أذهب إلى المعمل مع والدي منذ الصباح حتى الظهر، .وكان والدي يشجعني على ذلك بإعطائي مكافآت بسيطة مثل ربع أو نصف ليرة
كانت حياتي قبل الاعتقال تخلو من الفضول الذي يميز الأطفال الآخرين، كنت ملتزماً بالبيت والجامع، وقد تأثرت كثيراً بوالدتي، التي كانت متدينة على عكس والدي، الذي لم يكن متديناً، والدتي وخوالي كانوا معروفين بتدينهم، بيئتي العائلية لعبت دوراً كبيراً في نشأتي ونحن كأبناء كنا نميل أكثر إلى أخوالنا، على عكس أعمامنا.

والدي رحمه الله، كان لا يصلي ويتعاطى الخمر، كنت دائمًا أحاول منعه عن هذه الأمور، وكنت ألاحقه باستمرار كي يمتنع عن الشرب، كنت أذهب إلى المعمل وأكب الخمر الذي كان يحتفظ به، وأحيانًا كانت تحدث مشادات كلامية بيني وبينه بسبب ذلك، كان يعلم رحمه الله أن ما يفعله خطأ لذلك كان حريصًا على ألا أراه وهو يرتكب المنكرات، لكنني كنت دائم الحركة وألاحظ كل شيء كلما أخفى الخمر، كنت أجد مكانه وأكبّه.

كان يدرك أنني من فعل ذلك ورغم غضبه، لم يكن يعاقبني أو يوبخني، لأنه كان يعلم في قرارة نفسه أنه مخطئ.

في البيت كنت مميزاً بسبب نشاطي وحركتي، إذا احتاجوا أي شيء كنت أنا من يقوم به من واجب القيام بالزيارات إلى شراء الحاجيات من الدكاكين، إخوتي لم يكن لديهم نفس النشاط والحيوية، أما أنا، فالحمد لله، كنت أحب العمل والخدمة، وربما بالفطرة أحببت مساعدة الآخرين، لأنني أرى فيها أجراً وسعادة.

أيضاً كنت مقرب لأمي ومميز عندها بسبب إلتزامي بالدين والصلاة، كنت أيضًا مميزاً عند والدي بسبب اهتمامي بالعمل وتحمل المسؤولية، كنت الوحيد الذي يطلب غرفة خاصة منذ صغري، وبدأت أؤسس لنفسي حياة مستقلة.

في آخر فترة قبل دخولي السجن كان عمري 14 سنة، اختلفت مع والدي واستقليت عنه، تعلمت منه المهنة، وبدأت أعمل كصانع مستقل، بفضل علاقاتي وسمعة والدي في حي العرقوب، كان الناس يعرفونني ويشغلونني.

كبرت قبل أواني، فلم أكن ألعب أو أعيش حياة الطفولة كباقي أقراني، كان والدي يثق بي كثيراً ويعطيني مسؤوليات كبيرة، مثل إدارة العمال ومراقبة الماكينات، هذه الثقة جعلتني أنضج مبكراً، ومع التزامي الديني انضممت إلى جماعة الإخوان المسلمين، واستقليت تمامًا عن عائلتي.

في عملي، أثبت جدارتي، فكان المعلم الأول يثق بي، وعندما عملت مع معلم آخر، زادت ثقته بي حتى جعلني أعمل على أربع ماكينات نسيج بدلاً من اثنتين، وكانت أجرتي جيدة، هذا التميز جاء بفضل الله، ثم بفضل التزامي في البيت والعمل، وخدمتي لأمي ووالدي.

فيما يخص الأصدقاء في حياتي ففي المرحلة الابتدائية كانت لدي مشكلة في المدرسة بسبب نشاطي وحركتي الدائمة لذلك المعلمين دائمًا كانوا يضعونني في دور "مسؤول الانضباط "، الأمر الذي يضطرني لأن أضبط سلوكي أنا أيضاً، ويجعل زملائي الطلبة يسعون لإرضائي كوني مسؤول الانضباط في الصف.

أيضاً في الصف السابع، كنت سؤول الانضباط، وكان لون إشارة الانضباط في السابع "صفراء"، الثامن "حمراء"، والتاسع "خضراء". ولكنني لم أكمل الصف التاسع بسبب اعتقالي وكان ذلك عام 1980.

بشكل عام كنت معروف في المدرسة كلها بأني مسؤول الانضباط وكنت محبوب بسبب نشاطي، هكذا كانت طبيعتي في المدرسة الابتدائية والإعدادية نشيط ومجتهد وتلك الطباع مازالت معي حتى اليوم.

نشأتُ في بيئة متديّنة، في تلك المرحلة، كانت جماعة الإخوان المسلمين في سوريا تعيش أوج نشاطها الثوري في بداية الثمانينيات، وكانت هناك حماسة كبيرة بين الشباب، بطبيعة الحال، في ذلك العمر، لا يعرف الإنسان الخوف ولا يحسب كثيراً للعواقب، بل يكون الاندفاع هو المسيطر، خاصة مع وجود دوافع داخلية وخارجية تدفعك للانخراط في مثل هذه الحركات.

الدافع الداخلي كان ميلي الفطري إلى التدين وحبي للإسلام، إذ كنتُ مواظباً على حضور الدروس الدينية في المسجد مع الأساتذة والطلاب، رغم أن النشاطات الدينية آنذاك لم تكن متطورة كما هي اليوم، أما الدافع الخارجي، فكان يتمثل في البيئة المحيطة بي؛ فمن جهة، كان لدي نفور من تعامل والدي، ومن جهة أخرى، كنتُ أجد أصدقائي وأقاربي من أبناء خالتي هم الحافز الإيجابي الذي يدفعني إلى الانضمام لهذا التيار.

في البداية، لم أفكر فيما إذا كانت الجماعة على حق أو خطأ، إذ لم يكن هناك تحليل منطقي عميق، بقدر ما كان هناك تأثير للعوامل الداخلية والخارجية التي دفعتني لاتخاذ هذا القرار، كان الأمر أشبه بمغامرة غير محسوبة، مدفوعة بالرغبة في التغيير والانتماء إلى بيئة أشعر فيها بالقبول والدعم، وبالفعل، استجاب لي أبناء خالتي وربطوني بجماعة الإخوان، ومنذ ذلك الحين التزمت مع الشباب وسرت في هذا الطريق.

كانت فترة الثمانينيات في سوريا مليئة بالظلم والقمع، وهو أمر لم يكن واضحاً لعامة الناس في ذلك الوقت، فبينما كان المثقفون والمهتمون بالشأن السياسي مدركين لما يجري، كان غالبية الشعب، حوالي 90% منهم، بعيدين عن معرفة تفاصيل السجون، والتعذيب، والاضطهاد الذي تمارسه السلطة.

إحدى الحوادث التي أثارت غضب الناس في تلك الفترة كانت مرتبطة بجماعة رفعت الأسد، وخاصة عناصر "المظليين"، الذين قاموا بإنزال فرق خاصة إلى شوارع دمشق وبدأوا بنزع الحجاب عن النساء بالقوة، كان هذا في مارس أو أبريل من عام 1980، وكان نقطة تحول في وعي الناس حول طبيعة النظام القائم.

في البداية، كانت هذه التصرفات تتم في الأزقة البعيدة عن الأنظار، لكن الأمور خرجت عن السيطرة عندما تعرض ضابط شرطة وزوجته لهذا الاعتداء، فبينما كان يسير مع زوجته، قامت إحدى المظليات بنزع حجاب زوجته بالقوة، مما دفع الضابط إلى الرد فوراً بسلاحه الشخصي، فأطلق النار وقتل المظلية على الفور.

هذه الحادثة انتشرت سريعاً في أحياء دمشق، حيث بدأ الناس يتساءلون: لماذا أطلق الضابط النار؟ وعندما عرفوا أن السبب هو نزع الحجاب، أدركوا أن هناك حملة منظمة تستهدف القيم الإسلامية.

كانت النساء في الأحياء الأخرى قد تعرضن لمثل هذه الممارسات، لكن بسبب الخوف، لم يجرؤن على الحديث حتى لأفراد أسرهن، أما عندما وقعت الحادثة العلنية، أصبح الأمر مكشوفًا وبدأت الأخبار تنتشر في مختلف المحافظات رغم غياب وسائل الإعلام الحديثة، حيث لم يكن هناك سوى التلفزيون الرسمي ونقل الأخبار شفهياً بين الناس.

في حلب، كانت الأمور مختلفة بعض الشيء، فقبل أن تنتشر الأخبار على نطاق واسع، كان هناك بالفعل تحركات واغتيالات ضد رموز النظام، وعندما التحقتُ بجماعة الإخوان المسلمين، زاد إصراري على أن النظام السوري كان نظامًا ظالمًا يحارب الإسلام والمسلمين.

في بداية انضمامي للجماعة، لم يكن هناك أي توجه لحمل السلاح أو القتال، بل كنا نركز فقط على تعلم أمور الدين، العقيدة، السيرة النبوية، واللغة العربية داخل المساجد، كانت الجماعة ذات طابع دعوي وسطي، ولم يكن هناك أي تفكير في العمل المسلح، لذلك، عندما بدأ الحديث عن التسلح لاحقاً، تفاجأنا نحن الشباب المنضمين حديثًا.

قبل حادثة مدرسة المدفعية الشهيرة، التي وقعت إما في عام 1979 أو في مايو/يونيو 1980، لم يكن هناك شيء يُعرف باسم "الإخوان" على نطاق واسع، ولم يكن هناك مفهوم للحركات المعارضة المسلحة، لكن منذ أن تسلم حافظ الأسد السلطة عام 1970، وخصوصًا بعد تعديل الدستور عام 1973، بدأت بعض التحركات المعارضة تظهر ببطء، خاصة في حماة، حيث وقعت عدة حوادث مثل حادثة جامع السلطان، وحادثة الشيخ محمد الحامد، وكذلك المواجهات التي خاضها الشيخ مروان حديد واعتقاله عام 1974.

بحلول عام 1980، تصاعدت الأحداث بشكل كبير، وبدأت الإضرابات العامة، وانتشر الجيش في شوارع حلب وغيرها من المدن السورية، حيث تم نشر الدبابات ونصب الحواجز العسكرية، وبدأ إطلاق النار بشكل متكرر، عند هذه النقطة، بدأ الناس يدركون حجم القمع، وأصبحت المعارضة أكثر وضوحًا.

خلال تلك الفترة، كنت أواظب على حضور الصلوات في الجامع، وذات صباح، أثناء صلاة الفجر، لاحظت أمراً غريباً: المسجد الذي كان يمتلئ بالمصلين لم يكن فيه سوى 20 شخصاً فقط، استغربت، وعندما خرجت من المسجد، وجدت على الجدران عبارة كتبت بخط واضح: "لا إله إلا البعث، ولا إله إلا الأسد".

شعرتُ بالصدمة والغضب، وذهبتُ مباشرة إلى جماعة الإخوان المسلمين وأخبرتهم بالأمر، فكان ردهم هادئًا لا تفعل شيئًا لكننا في الداخل كنا نغلي غضباً، إذ شعرنا أن هناك تحدياً واضحاً لعقيدتنا وإيماننا.

في ذلك الوقت، لم يكن لدينا أي تصور عن استخدام السلاح أو المواجهة، كنا فقط نتعلم الدين ونتلقى دروساً من شيوخنا.

استمر هذا الحال حتى عام 1980، عندما بدأت المواجهة المسلحة تتصاعد، في ذلك الوقت، وصلنا طلب مباشر لحمل السلاح والدفاع عن ديننا وعن الحرائر اللواتي كنّ يتعرضن للانتهاكات، هذا كان نقطة تحول في مسيرتنا، حيث انتقلنا من مرحلة التعلم والدعوة إلى مرحلة المواجهة.

مع بداية العمل المسلح في حلب خلال عام 1980، تلقيت تدريبات محدودة على استخدام المسدسات والقنابل، حيث اقتصرت تدريباتي على فك وتركيب المسدس في أربع أو خمس جلسات فقط. في ذلك الوقت، لم يكن السلاح متوفراً بسهولة، وكان غالي الثمن، لذلك كنا نستخدم ما لدينا بشكل محدود.

رغم أن الانتفاضة في حلب لم تكن قد مضى عليها أكثر من شهرين أو ثلاثة، إلا أنني اعتُقلت في يوليو 1980، أي بعد شهرين من المجزرة التي حدثت في سجن تدمر، كانت آثار الجريمة لا تزال واضحة، حيث وجدنا بقايا أجساد الشهداء، ملابسهم، وأحذيتهم ملقاة في المهاجع، اضطررنا إلى تنظيف المهاجع بأنفسنا وإزالة كل ما تبقى من المجزرة.

في ذلك الوقت، كانت العمليات المسلحة في سوريا ما تزال في بداياتها، ولم يكن هناك انتشار واسع للأسلحة بين الناس. على سبيل المثال، في مجموعتنا التي كانت تتألف من خمسة أشخاص، لم يكن لدينا سوى مسدسين فقط، وكنا نضطر لاستعارة الأسلحة عند الحاجة، كانت أي عملية تتطلب تخطيطاً دقيقًا، حيث يتم تقسيم الأدوار بين أفراد المجموعة حيث يكون هناك شخص مكلف بتنفيذ العملية، وشخص يساعد في توفير التغطية للمنفذ الأساسي، ومراقبون للشوارع والمداخل يعطون الإشارة في حال وجود خطر، ومجموعة حماية تكون مجهزة بأسلحة رشاشة لحماية المجموعة في حال حدوث اشتباك مع قوات الأمن.

بالنسبة لاعتقالي كيف حدث! فهذا له قصة. في بداية الثمانينات، كانت هناك أجهزة تصنت متطورة تستخدمها الدولة لمراقبة الاتصالات، أحد هذه الأجهزة كان جهاز "سانو" أو "فيليبس"، وهو جهاز تلفزيون يعمل باللمس بحجم 14 بوصة، أحد الإخوة المهندسين الإلكترونيين في الجماعة تمكن من تعديل الجهاز ليغير تردداته ويلتقط موجات اللاسلكي الخاصة بأمن الدولة والأمن العسكري، بفضل هذا الجهاز كان يمكن رصد تحركات الدوريات العسكرية، مما جعله ذا أهمية كبيرة لدى الجماعة.

هذا الجهاز كان بحوزة طبيب أسنان، لكنه كان في الحقيقة مخبراً لجهاز الأمن، لاحظ الطبيب تردد بعض الأشخاص على المسجد، بمرور الوقت، تعرف الطبيب على واحد منهم وهو شخص قيادي في الأخوان.

أوهمه بأنه يريد التبرع بالجهاز لخدمة الثورة، بدوره، أبلغ أحد عناصر الوحدات الخاصة، والذي كان منفذ عمليات، بوجود الجهاز، وتم الاتفاق على تسلمه في موعد محدد في الجبانة.

عندما ذهب العنصر لاستلام الجهاز، تبين أن الأمر كان كمينًا، حيث كانت المنطقة مطوقة بعناصر الأمن العسكري المدججين بالسلاح، يا للأسف رغم حرصه، وقع العنصر في الفخ واعتُقل.

في الجماعة، كان هناك إجراءات أمنية تحرص على عدم انقطاع التواصل رغم الاعتقالات، فتم تحديد بديل للعنصر في حال اعتقاله، وكنت أنا البديل المكلف بالتواصل في اليوم التالي، لم نكن نعلم بعد باعتقال العنصر، فتوجهت إلى الموقع المحدد للقاء الطبيب المخبر.

التقيت به في الوقت المحدد، وركبنا الدراجة النارية معًا، في الطريق، أبدى الطبيب قلقه وخوفه من قيادته الدراجة وبأنه غير معتاد على قيادتها، فاقترحت أن أقودها أنا، أعطيته كيسًا يحتوي على مسدس وعدد من المخازن، وواصلنا الطريق باتجاه مستشفى السريان، حيث أخبرني أن زوجته تلد هناك. بعد مسافة قصيرة، طلب مني تغيير الطريق، وقادني نحو منطقة فيها مقر أمني دون علمي، ما إن دخلنا الشارع حتى فوجئت برجال مسلحين من الأمن العسكري والمخابرات يحيطون بي، أدركت حينها أنني وقعت في الفخ، سحبت مسدسي محاولاً المقاومة، لكنه تعطل ولم يطلق النار، خلال لحظات، تمت السيطرة عليَّ ونُقلت إلى الفرع العسكري.

بدأت التحقيقات فوراً، وتعرضت لتعذيب قاسٍ جداً، كانوا يريدون مني الاعتراف، لكنني حاولت التملص قائلاً إن المسدس يخص "أبو الموتور"، دون إعطاء تفاصيل، تعرضت للضرب والتعذيب الشديد أكثر من 13 مرة، لكني استمررت في إنكار أي معرفة بالمخطط.

بعد ساعات من التحقيق، حاول الضابط إقناعي بالاعتراف بإدخال أحد رفاقنا، لكنهم ألبسوه زي ضابط وأوهموني بأنه اعترف بكل شيء، عندما واجهته لاحقًا في الزنزانة، أخبرني أنه لم يعترف بأي شيء، مما جعلني أدرك الحيلة التي استخدمها المحققون.

في النهاية، كنت ثاني شخص يتم اعتقاله، لكن الأمن كان يسعى للوصول إلى باقي قيادات المجموعة، هكذا استمر التحقيق، والتعذيب، والمحاولات لكشف شبكة التنظيم بأكملها.

لم يكن أحد في عائلتي يعرف عن نشاطي، باستثناء أمي، كانت تعلم أنني أنتمي إلى الإخوان المسلمين، وأنني مسلح، لكنها لم تخبر أحداً، حتى والدي وإخوتي لم يكونوا على علم بذلك. كانت أمي تحضر لي ملابسي وتدعو لي كلما خرجت، وحين كنت أخبرها أن لدي "عملاً"، كانت تردد: "الله يحميك يا ابني".

بعد عشرة أيام من التحقيق في الفرع، نقلوني إلى المشفى العسكري بحلب بسبب التعذيب الشديد، بقيت هناك ما بين 10 إلى 15 يومًا، ثم أعادوني إلى فرع هنانو.

في 31 أكتوبر 1980، وهو يوم أربعاء، نقلونا إلى سجن تدمر، كانت الرحلة طويلة ومرهقة، حيث استغرقت أكثر من عشر ساعات من حلب إلى تدمر، رغم أن الطريق لا يحتاج إلى أكثر من أربع إلى خمس ساعات، طوال الطريق، تعرضنا للضرب، الإهانة، والحرمان من الطعام والماء.

في سجن هنانو، كنا 23 شخصاً في غرفة مساحتها ثلاثة أمتار بمترين، كانت تستخدم قديمًا كإسطبل في العهد العثماني، كان من المستحيل الصلاة أو الصيام بشكل طبيعي، أما في تدمر، فقد كنا ننتظر دورنا لدخول الحمام، وعشنا تحت تهديد مستمر بالتعذيب والموت في أي لحظة.

أساليب التعذيب كانت وحشية، تتراوح بين الضرب بالكابلات الحديدية، والصعق بالكهرباء، والحرمان من النوم والطعام، وحتى الإعدام المباشر، لم يكن هناك فرق بين ليل ونهار، فكل لحظة كانت جحيماً مستمراً.

بعد 100 يوم من الاعتقال، تلقيت أول زيارة لي، أبي وأمي زاروني، رأيتهما بعد كل هذا العذاب، كانت خلال شهر رمضان وكانت أمي تدعو لي دائماً، بعد أيام قليلة، زاروني مرة أخرى، لكنها كانت الأخيرة قبل نقلي إلى تدمر، حيث انقطع الأمل في أي تواصل مع العالم الخارجي.

هذه التجربة ليست مجرد قصة شخصية، بل شهادة على معاناة لا يمكن أن تُنسى التعذيب، الألم، والخوف كانا جزءاً يومياً من حياتنا، لكن رغم كل شيء، ظل الإيمان بالله هو القوة الوحيدة التي منحتنا القدرة على التحمل.

كان تدفق المعتقلين مستمراً، حيث كانت تصل دفعات جديدة كل أسبوع أو عشرة أيام، عندما كان يصل 50 معتقلاً جديداً، كان المساعد يطلب نقل من هم مواليد 1963 إلى 1966 إلى مهاجع الأحداث، حيث كنت أنا من أصغر الموجودين، إذ كان عمري 14 عامًا عند اعتقالي.

كانت أحكام الإعدام تُنفَّذ بشكل متكرر، وفي كل مرة كان يتم تجهيز مهجع معين للمحكومين بالإعدام، مثل المهجع 25، حيث يُجمعون ليلاً، ثم يتم تنفيذ الحكم عند الفجر.

في المهاجع، كنا نعيش في ظروف لا تُحتمل، حيث كانت المراحيض قليلة والمياه شحيحة، وكان الهواء في المهاجع خانقاً بسبب الاكتظاظ، كانت وجبات الطعام تُوزع بشكل غير منتظم، وكنا نحصل على كميات قليلة لا تكفي للبقاء على قيد الحياة.

رغم وحشية السجن، كنت أحاول مساعدة السجناء الأكبر سناً، فأقوم بتوزيـع الطعام والمياه، لكن أحيانًا لم يكن بمقدوري إنقاذ أحد، كما حدث مع أحد السجناء الذين كنت أخدمهم، فقد أصيب بحصر بول أثناء نقله من حلب إلى دمشق، ولم يُسمح له بالعلاج، ما أدى إلى انفجار مثانته وموته، استشهد بين يدي لا أنسى ذلك الموقف ما حييت.

كانت الحياة في سجن تدمر جحيماً لا يمكن تصوره، حيث كانت الوحشية جزءًا من الروتين اليومي، لم يكن هناك رحمة، ولم يكن هناك من يسمع صرخاتنا، ولكن رغم كل ذلك، بقينا نعيش على الأمل، على أمل أن ننجو، وعلى أمل أن نروي للعالم ما حدث داخل أسوأ سجن عرفه التاريخ الحديث.

بقيت في سجن تدمر من 1980/10/31 إلى 1988/6/2، لمدة تقارب ثماني سنوات ونصف، ففي عام 1986، تم بناء سجن صيدنايا، وجاءت الأوامر بتخفيف عدد السجناء في سجن تدمر، كونه سجناً صحراوياً يعاني حتى السجّانون أنفسهم من قسوته، بغض النظر عن ظروفه المزرية من ازدحام، وروائح ومرض وقتل، بالإضافة إلى ذلك، توقفت عمليات التصفية الجسدية للسجناء بعد ستة أشهر من ذلك، فتم افتتاح سجن صيدنايا، الذي كان يُعتبر مقارنةً بتدمر أشبه بفندق ثلاث نجوم بالنسبة لهم.

عندما افتُتح سجن صيدنايا عام 1987، كنت مريضاً بالسل، فلم يرسلوني مع دفعتي، بل تأجل نقلي ستة أو سبعة أشهر حتى تحسنت حالتي الصحية، بركات عشي كان يرفض استقبال أي سجين مصاب بالسل، لأنه كان يدرك مدى انتشار المرض في تدمر ولم يُرد أن ينتقل إلى السجناء في صيدنايا، لذلك، كان يأمر بترك المرضى في تدمر حتى يتحسنوا. في النهاية، عندما شُفيت، تم نقلي مع مجموعة من السجناء الأصحاء من المهجع 38 في الباحة الأولى، وتحديدًا من المهجع 7. كنا حوالي 50 شخصًا فقط في مهجع كبير، مما جعلنا نشعر وكأننا في مساحة أوسع مقارنة بالازدحام الخانق في تدمر.

في 2 يونيو 1988، تم نقلنا، مجموعة من 40 إلى 50 سجينًا، من سجن تدمر إلى سجن صيدنايا. لم يكن لدينا أي فكرة عن المكان الذي نحن ذاهبون إليه، وبمجرد وصولنا، بدا لنا وكأننا في عالم مختلف تمامًا، كان كل شيء جديدًا: الأجنحة مرتبة، الإضاءة ساطعة، الجدران مطلية، وحتى التدفئة (الشوفاجات) كانت تعمل، بدا الأمر غريباً جداً مقارنةً بتدمر.

في البداية، تم إدخالنا إلى مهاجع عادية لمدة 10 إلى 15 يومًا، لكن حالتي الصحية كانت سيئة بسبب إصابتي بالسل، مما استدعى تدخل "المسؤول الصحي"، وهو شيء لم نكن نعهده في تدمر، جاء هذا المسؤول وسأل عن وضعي، ثم أخبر الإدارة بضرورة توفير علاج لي، قررت إدارة السجن افتتاح جناح خاص للمصابين بالسل، حيث تم عزلنا عن باقي السجناء في الطعام والشراب، وبدأوا في إعطائنا العلاج داخل المهجع نفسه.

تم نقلنا إلى الجناح المخصص، الذي كان يحتوي على عشر مهاجع، وضعونا في المهجع رقم 9، بينما كان المهجع رقم 10 مخصصًا للضباط "المعاقَبين". هؤلاء الضباط كانوا من أوائل السجناء الذين نُقلوا إلى صيدنايا، وهناك بدأت تظهر بعض الشخصيات الانتهازية، حيث وجد بعض السجناء فرصتهم للتقرب من الإدارة من خلال الوشاية على زملائهم.

بدأت المعلومات تتسرب من تدمر إلى صيدنايا عن طريق هؤلاء الوشاة، حتى وصلت إلى مدير السجن، في بعض الأحيان كان يستمع إليهم، وأحيانًا أخرى كان يتجاهلهم، لكنهما واصلا عملهما، حتى قدما بلاغًا عن 15 سجيناً، معظمهم من الضباط، متهمين إياهم بمحاولة تنفيذ استعصاء داخل السجن والتواصل مع المهاجع الأخرى لتنظيم تمرد.

الإدارة في السجون لا تتساهل أبداً مع أي حديث عن تمرد، سواء كان صحيحاً أم لا، ولذلك تم عزل هؤلاء الضباط ونقلهم إلى الزنازين، هناك تعرضوا لتعذيب وحشي استمر شهرين أو ثلاثة، على يد مدير السجن، الذي لم يكن غريبًا عن أساليب تدمر، كان يستخدم الغازات المسيلة للدموع داخل المهاجع، ويضرب السجناء بقوارير الغاز على رؤوسهم، حتى أصبح السجن كله في حالة توتر وخوف شديد.

بعد شهرين من التحقيق والتعذيب، قررت إدارة السجن فرض عقوبة جماعية على جميع السجناء، حيث تم إغلاق كافة المهاجع، وبدأوا بإخراج السجناء واحداً تلو الآخر وتعذيبهم، حتى يتأكدوا من صحة الادعاءات.

عندما وصلتُ إلى صيدنايا، كان بعض السجناء لا يزالون في الزنازين جراء هذا القمع، والبعض الآخر بدأ بالخروج تدريجياً. كنت في المهجع رقم 9، في القسم "جيم يمين"، في الطابق الثالث. أما المهجع رقم 10، فقد ظل مغلقًا بالكامل، وكان الضباط المحكومون محتجزين داخله. في ذلك الوقت، كانت صيدنايا مختلفة عن تدمر في بعض الجوانب، لم يكن هناك إعدامات أو قتل مباشر، وكانت المراحيض داخل المهاجع، بعكس الأفرع الأمنية التي كانت تستخدم المراحيض كوسيلة تعذيب إضافية، لكن في الوقت نفسه، لم يكن السجناء في المهجع رقم 10 يُسمح لهم بالخروج مطلقًا، وكانوا يعيشون في عزلة تامة، لا يُسمح لهم بمغادرة المهجع أو حتى التنفس في الكريدور. استمر هذا الوضع لأربعة إلى ستة أشهر، حتى بدأت إدارة السجن بتخفيف القيود عنهم تدريجياً.

قضيت في سجن صيدنايا ما يقارب 16 سنة ونصف، من 1988/6/2 حتى 2004/12/8. خلال هذه الفترة، وفي الشهر السابع أو الثامن، تم سحبنا على أساس إخلاء سبيل، حيث تم الإفراج عن دفعة من السجناء، لكننا أُعيد عدد منا إلى السجن، وبقينا حتى الإفراج النهائي في 2004/12/8، وهو نفس التاريخ الذي شهد سقوط بشار الأسد في 2024/12/8، لكن بعد 20 عاماً.

أما عن تجربتي داخل سجن صيدنايا، فمع مرور الوقت، يعتاد الإنسان على بيئته، لكن كل شخص يتفاعل بطريقته الخاصة.

في البداية، كنت مشغولًا بالعمل في السخرة، حيث كان عدد السجناء كبيرًا، وكنت معروفًا بين الشباب بنشاطي في توزيع الطعام والفواتير، لكن مع مرور السنوات، وتحديدًا بين عامي 1994 و1995، انخفض عدد السجناء من 3200 إلى حوالي 400 فقط، مما جعل المهام أقل، فلم يعد هناك الكثير لتوزيعه.

خلال هذه الفترة، أصبحت الفواتير تأتينا على فترات متباعدة، مثل الفاتورة العامة التي تصل شهرياً، والتي تشمل المواد الأساسية كالسمنة، البرغل، السكر، والمعلبات، بالإضافة إلى فاتورة الخضار التي كنا نستلمها كل أسبوعين، كان هناك نوع من التكافل الاجتماعي بين السجناء، حيث كان يتم تخصيص حصة لمن لا يملك المال لشراء الطعام، وكنت مسؤولاً عن صندوق التكافل لمدة سبع أو ثماني سنوات.

في تلك الفترة، كان هناك ضباط معروفون من محاولة الانقلاب على حافظ الأسد عام 1982، مثل تيسير حلاوة، تيسير لطفي، وحسان السقا، الذين كانوا من كبار الضباط وتم اعتقالهم بعد فشل الانقلاب، تم نقلهم من سجن المزة إلى جناحنا في التسعينيات، ومنذ عام 1995 وحتى 2004، كنت رئيساً للجناح لمعظم تلك الفترة، ومع توفر الوقت، بدأت في القراءة والتثقيف الذاتي، فطلبت عبر الزيارات كتبًا في الفقه والتفسير، مثل تفسير القرطبي، ابن كثير، والجلالين، إلى جانب كتب في التصوف مثل "إحياء علوم الدين" للغزالي، وكرست وقتي للقراءة والتعلم.

عندما خرجت من السجن، تم استدعاؤنا إلى الفرع، حيث اجتمع معنا رئيس الفرع حسن خلوف مع مجموعة من القدامى، وكان يُطلق علينا "المكبرين راسنا"، أي من أمضوا فترات طويلة في الاعتقال.

تم إجراء مقابلات تلفزيونية معنا خلال الأشهر الخمسة الأولى، وعُرضت على بشار الأسد، لكنه رفض الموافقة على الإفراج عنّا في البداية. كنت أحد الذين خضعوا للمقابلات، لكن لم يتم بثها لأنني لم أقل ما يريدون سماعه.

حسن خلوف، الذي كان قد اعتقلني سابقًا وحقق معي، هو نفسه الذي أشرف على الإفراج عني، عندما رآني، لم أكن متأكداً إن كان يتذكرني، لكنني سألته مباشرة: "سيدي، ماذا سنقول للناس عندما يسألوننا عن مصير ذويهم؟" فوقف للحظة وقال: "إذا كنت متأكداً أن أحدهم ميت، أخبر أهله بذلك، أما من لا تعرف مصيره، فلا تقل شيئاً". اتّبعت هذه النصيحة عندما خرجت إلى الحياة مجدداً، وحين كان الناس يسألونني عن ذويهم، كنت أخبرهم فقط بما أعرفه على وجه اليقين. لاحقًا، جاءني استدعاء جديد من الفرع بعد أن اشتكى أحدهم بأني أفصحت عن معلومات، عند الاستجواب، أوضحت أنني التزمت بما قاله لي حسن خلوف، فردّ الضابط: "حسناً، ما قيل لك حينها كان صحيحاً، لكن الآن لا تخبر أحدًا بأي شيء." وهكذا بدأت مرحلة جديدة من حياتي بعد السجن.

إن هذه السجون كانت مسالخ بشرية، حيث يتم سحق الإنسان تماماً بلا رحمة. واليوم، وبعد خروجي، أجد من واجبي أن أروي ما حدث، حتى لا يُنسى هذا الظلم، وحتى يدرك العالم حجم الجريمة التي كانت تُرتكب خلف جدران الصمت.

لحظة اللقاء بعد 25 سنة من الاعتقال كانت مزيجًا من الفرح والحزن، وصلتُ إلى حلب، وكان في استقبالي عند الملعب البلدي في حي الفيض أخواتي وأخوتي الشباب وأصهرتي ووالدي، كانت لحظة عاطفية استثنائية، فقد تغير الجميع كثيرًا، ولم أعد أتعرف عليهم بسهولة، كنت الثالث بين إخوتي، ولكن خلال هذه السنوات الطويلة، كبروا جميعاً، وأصبح لكل واحد منهم عائلة وأطفال، بعضهم لديه خمسة أو ستة أبناء.

كانت الدموع تغمر أعيننا، دموع فرح باللقاء، ودموع حزن على ما فات، لكن أكثر ما آلمني في تلك اللحظة هو غياب والدتي، فقد رحلت عن الدنيا عام 2001 دون أن أراها، كان هذا الغياب كجرح لم يندمل، شعرت بأنني عدت متأخراً جداً عن وداعها.

عندما ذهبنا إلى البيت، وجدتُ نفسي في حياة جديدة، لكنها لم تكن الحرية التي تخيلتها، كانت حياة أشبه بعبودية من نوع آخر.

في السجن، كان همي الوحيد هو الخروج، كنت أعيش على أمل الإفراج، لكن بمجرد خروجي، أدركت أنني انتقلت إلى سجن آخر، سجن الخوف والقيود الاجتماعية والسياسية.

في كل مرة كنت أعلن فيها أسماء دفعة جديدة للخروج، كنت أخبرهم أن الفرحة مؤقتة، وأنهم سيواجهون ألف همّ بعد خروجهم، كنا داخل السجن نأكل مما يُقدم لنا، ولا نحمل همّ الرزق، لكن خارجه، تبدأ الحسابات، تبدأ المعاناة من جديد، ويجد الإنسان نفسه وسط عالم لم يعد يعرفه جيداً، أو لم يعد يعرفه أصلاً.

في الأشهر الثلاثة أو الأربعة الأولى بعد خروجي، كانت حياتي عبارة عن مراجعات مستمرة للفرع الأمني، كل شيء بدا غريباً، حتى المشي في الشوارع لم يكن أمراً طبيعياً بالنسبة لي بعد 25 سنة من السجن، كنت أشعر أنني لا أعرف كيف أتحرك بين الناس، لذلك كان أخي الأصغر، يرافقني دائمًا، يأخذني معه لزيارة إخوتي وأقاربنا ورفاقنا، يحاول أن يساعدني على التأقلم مع الحياة الجديدة.

لكن حتى وأنا أحاول العودة إلى حياة طبيعية، لم تكن عيوني بعيدة عن أعين الفرع، لم أكن أستطيع التحرك بحرية، فبينما أنا جالس مع إخوتي، أو في طريقي مع أخي، كان الهاتف يرن.

على الطرف الآخر يكون رئيس الفرع:
"وينك يا محمد؟"
"مع أخي، سيدي"
"بس تفضى، تعال اشرب فنجان قهوة عنا"
كانوا يراقبون كل شيء، حتى حين كنت أجلس مع عائلتي، كانوا يعرفون تحركاتي، أخبرني رئيس الفرع مرة: "إخوتك كل يوم يجوا لعندي، قريبين علينا بالحارة." كأنها رسالة مبطنة بأنهم لا يزالون يحيطون بنا من كل جانب.

في إحدى المرات، كنت جالساً مع إخوتي حين تلقيت الاتصال المعتاد: "إذا فاضي، تعال نشرب فنجان قهوة." ثم يضيف وكأنه يمنحني خيارًا: "إذا مو فاضي، براحتك." لكنني كنت أعلم أن "براحتك" هذه، ليست كما تبدو...
صعدت في الباص متوجهاً إلى الفرع فوراً، عند وصولي، أدخلوني مباشرة، كانت الدنيا قد حلّ عليها الظلام بعد العشاء. استقبلني رئيس الفرع بالحديث المعتاد:
"شلونك؟ كيف الأمور؟"
"ماشي الحال، الحمد لله"
"مبسوط؟"
أجبته بصراحة: "لا والله، ماني مبسوط"
تفاجأ بسؤالي وقال: "ليش؟"
نظرت إليه بثبات وقلت: "بدي أسألك سؤال
أومأ لي بالموافقة، فتابعت:
"هلأ أنت طلبتني؟"
"إي، طلبتك"
طيب، أنا كنت قاعد مع أهلي،إخوتي، أبي، أولاد إخوتي،كلنا مجتمعين، عم" ندردش ونتسلى. فجأة دقّ عليّ التليفون وطلبتني. لما سألوني شو الموضوع، قلت لهم: الفرع طلبني. تعرف شو صار؟"
نظر إليّ بفضول وسأل: "شو صار؟"

قلت له بكل وضوح: "البيت كله فتح نواح! الكل صار يبكي"
قطّب حاجبيه وسألني باستغراب مصطنع: "ليش؟"
كان هذا هو رئيس الفرع العقيد إبراهيم محمد نفسه، لم يتغير. نظرت إليه وقلت:
يا سيدي، هذا هو الواقع، إخوتي خافوا لأنهم يعرفون أن استدعاء الفرع لا" يعني خيرًا"
ضحك قليلًا ثم قال بنبرة آمرة مغلفة بالمجاملة: يلا، اشرب فنجان قهوتك، وروح لعندهم ركض، وقول لهم: ما في شي"

في كل مرة كنت أذهب إلى الفرع، كانوا يتركونني أنتظر أربع أو خمس ساعات دون سبب واضح. في النهاية، لم أعد أحتمل، فقلت لهم بصراحة: "لم أعد أريد هذا الوضع، إما أن تتركوني لحالي أو تعيدوني إلى السجن!" بدأت أرفع صوتي وأغضب، فأنا لم أعتد على هذا الأسلوب في التعامل، ففي السجن كنت على الأقل "مكيف"، لا أحد يراقبني أو يطلب مني الذهاب والمجيء تحت السيطرة الدائمة.

زاد الضغط عندما بدأوا يطلبون مني أن أحضر لهم خطبة الجمعة كل أسبوع! أينما ذهبت، إلى أي جامع صليت، كان عليّ أن أعود بتقرير عن خطبة الشيخ. قلت لهم: "يا سيدي، هذه ليست وظيفتي، لماذا عليّ أن أفعل ذلك؟" وحينها كررت طلبي بإعادتهم لي إلى السجن، فقد بدأ التوتر يزداد بشكل لا يُطاق، وشعروا بذلك.

في أحد الأيام، كنت في الفرع العسكري في السريان، واقفاً هناك منذ أربع ساعات، رغم أنني استأذنت من عملي لمدة ساعة فقط. مرّ المقدم (الذي أصبح الآن عميداً)، وسألني:
"أهلا محمد، كيفك؟"

أجبته ببرود: "الحمد لله، لكنني لست مرتاحاً، لست مبسوطاً
قال لي: "خير، ماذا هناك؟"
قلت له: "منذ أربع ساعات وأنا واقف هنا ولا أعرف السبب! الدنيا حارقة، وأنا أخذت إذنًا من عملي لمدة ساعة فقط"

شعر أنني محق، فأخذني إلى المساعد، الذي كان منشغلاً بالكتابة، وقال له: "يا مساعد، عليّ، هذا محمد، عندما يأتي، دعه يمر فوراً ولا تجعله ينتظر." ثم التفت إليّ وسألني: "هل لديك طلب آخر؟"
قلت له: "نعم، كل مرة تأخذون مني يوماً من عملي، وأخسر أجره"
فقال: "حسنًا، نجعلها كل شهرين بدلاً من كل شهر".
أجبته: "كل شهرين أو ثلاثة، لا بأس." فالتفت إلى المساعد وقال له: "سجّل، كل شهرين لمحمد"

بعد ذلك، بدأت أفكر في الزواج، ولكن واجهتني مشكلة أكبر: لم يكن لدي هوية شخصية، لم يعطوني أي وثيقة تثبت وجودي! كيف لي أن أتزوج دون أي إثبات رسمي؟ لم يكن لدي شيء يدل على أنني موجود أصلاً.

عندما حاولت استخراج هويتي الشخصية، واجهت تعقيدات لم تخطر ببالي، كانت هويتنا القديمة عبارة عن دفتر، وعند تقديم الطلب، قيل لي إنه يجب مراجعة شعبة التجنيد أولاً.
ذهبت إلى التجنيد، وسألني الضابط: أين كنت طوال هذه الفترة؟
أجبته بصراحة: "كنت عندكم"
فنظر إلي مستغرباً وسأل: "عندنا أين؟!"
بدأوا بالبحث عن ملفي في أرشيف ضخم يملأ غرفتين أو ثلاث، واستدعوا عسكرياً وأمروه بالبحث في ملفات عام 1966. ظل العسكري يفتش ويقلب الملفات دون جدوى، وفي كل مرة كنت أعود للمطالبة بهويتي، كانوا يعيدونني إلى نقطة الصفر.

استغرق الأمر خمسة إلى ستة أشهر حتى حصلت أخيرًا على الموافقة لاستخراج الهوية.

ظننت أن الأمور انتهت، لكن عند ذهابي لكتابة عقد الزواج، أوقفني موظفو التجنيد مجددًا:
"يجب أن تُحال إلى فرع الأمن السياسي"
استغربت وقلت: "لماذا؟ ليس لي علاقة بالسياسة، فقد كنت معتقلاً لدى فرع عسكري!"
لكن الرد كان: "لا نعرف، لكن فرع الأمن السياسي يريدك".
لم أكن أعرف شيئاً عن فروع الأمن السياسي، فقد كنت حديث العهد بالخروج ولا أعرف مواقعهم، سألت الناس حتى وصلت إليهم، وهناك بدأ التحقيق من جديد، طلبوا مني أن أعيد سرد القصة كاملة، كما أفعل الآن، من لحظة اعتقالي، وتاريخ اعتقالي، ومن نظمني، وكل التفاصيل.

في الأمن السياسي، لم يكن هناك الكثير من الجدل، كانوا يكتبون ما أمليه عليهم، لكنني كنت بحاجة إلى تعديل بعض التفاصيل، مثل سبب انضمامي إلى التنظيم، لم أستطع إنكار أنني كنت منظمًا، لكنني غيرت سبب التنظيم إلى "ضغوط عائلية من والدي وأهلي"، وهو مبرر لم يكن مقنعاً للأمن العسكري، لكنه قد يكون كافياً للأمن السياسي.

بعد إنهاء التحقيق هناك، طُلب مني التوجه إلى دمشق لمراجعة فرع آخر، حيث أعدت القصة مجدداً، لكن مع بعض التعديلات في "ديكور الرواية" لتخفيف الضغط، كان الهدف أن أفتح معهم صفحة جديدة حتى يتوقفوا عن ملاحقتي، لأن أي معلومة غير مرضية قد تعرقل حصولي على الوثائق الرسمية.

لم يكن بإمكاني الحصول على الهوية دون وجود دفتر خدمة عسكرية، وللحصول على الدفتر، كان يجب أن يُكتب فيه تأجيل إداري أو أمني.

وهكذا، وجدت نفسي عالقاً في متاهة لا تنتهي، حيث كان كل إجراء مرتبطاً بآخر، ولا شيء يتم بسلاسة.

تم تأجيلي للخدمة العسكرية تحت بند "مؤجل أمنياً" كل سنة بسنتها، كنت من مواليد 1966، وكان من المفترض أن يتم سحبي للخدمة العسكرية في عام 1991 أو 1992، لكن بسبب وضعي الأمني، كنت مؤجلاً دون أن يعرفوا أنني كنت معتقلاً.

عندما حصلت أخيرًا على دفتر الخدمة العسكرية، وجدت فيه مذكوراً أنني "مؤجل أمنياً". وهكذا، كلما سألني أحد عن سبب عدم خدمتي في الجيش، كنت أُبرز دفتر الخدمة وأقول: "مؤجل أمنياً، أي أنني كنت معتقلاً.

في الحقيقة، لا أذكر إن كان السبب المكتوب "مؤجل إدارياً" أو "أمنياً"، لكن النتيجة واحدة، وبسبب هذا التأجيل، لم أخدم في الجيش، خاصة أن من تجاوز الأربعين عامًا يُعفى من الخدمة، أما من خرج قبل الأربعين، فقد تم تجنيد بعضهم لكن ضمن وظائف ثابتة داخل الجيش، وبالنسبة لي، عندما خرجت كنت قد تجاوزت الأربعين، فأُعفيت من الخدمة تماماً.

بعد أن حصلت على الهوية ودفتر الخدمة العسكرية، واجهت عقبة جديدة عند التقدم للحصول على إذن الزواج، استغرقت العملية شهرين أو ثلاثة، حيث كنت مضطراً لمراجعة الفرع العسكري باستمرار.

كتبت عقد الزواج عند الشيخ، لكن لتثبيته رسمياً في المحكمة، كنت بحاجة إلى موافقة الفرع العسكري، حيث إنني كنت مصنفاً (موقوفًا أمنياً) مما يعني أنه لا يمكنني الزواج دون الحصول على إذن رسمي منهم.

ذهبت إلى الفرع، وقدّمت طلبًا للحصول على إذن الزواج، وبعد مراجعات وانتظار، حصلت أخيرًا على توقيع رئيس الفرع بالموافقة، عندها تمكنت من توثيق عقد الزواج في المحكمة، وتزوجت والحمد لله.

في عام 2011، عندما اندلعت الثورة السورية، ربما تأخرت محافظة حلب عن باقي المحافظات في التحرك، فقد بدأت الاحتجاجات في درعا، بانياس، وحمص، بينما كانت حلب ما تزال هادئة نسبياً.

كان لنا أصدقاء في بانياس وحمص، وكانوا يتواصلون معنا بشكل مستمر، يسألون:
"أين أنتم يا حلبيّة؟ لماذا لا تتحركون؟"
وكأنهم كانوا ينتظرون أن تلتحق حلب بالحراك كما فعلت باقي المدن.

في البداية، لم تكن الأمور واضحة، ولم يكن الشارع الحلبي قد تحرك بشكل كبير، لكن الضغط والتساؤلات كانت تتزايد يومًا بعد يوم.

خلال الأشهر الأولى، عقدنا اجتماعاً مصغراً ضمّ بعض التدمريين وأخوة من بانياس، حيث بدأوا بسرد تفاصيل ما يجري هناك، وبحكم تجربتنا السابقة، كنا نعلم أن النظام لا يواجه بالقمع والعنف، لأنه لا يعترف بأي محرمات، فقد شهدنا مجازر حماة وإعدامات سجن تدمر، وعايشنا قمع النظام في الثمانينيات.

أبدى الشباب حماسة كبيرة للتحرك، لكننا كنا نعي أن أي خطوة غير مدروسة ستؤدي إلى كارثة، خصوصًا في مدينة بحجم حلب، حيث النظام متجذر ولن يسمح بسقوطها بسهولة، رغم ذلك، كان رأي بعض الأصدقاء أن على حلب أن تتحرك لتخفيف الضغط عن حمص وبانياس ودرعا.

في حلب، بدأت المظاهرات تدريجيًا في أماكن مثل جامع آمنة وسيف الدولة، كرد فعل على قمع النظام، الذي كان يجمع الشبيحة في ساحة سعد الله الجابري لمنع أي احتجاجات، كثير من هؤلاء الشبيحة كانوا يتلقون 500 ليرة مقابل البقاء في الساحة، وبعض رجال الأعمال الموالين للنظام، مثل محمد السخنة، كانوا ينفقون مبالغ طائلة لتمويل هذا الحشد، نظراً لمصالحهم المرتبطة بالنظام.

مع مرور الوقت، ازدادت المظاهرات، وبدأ الناس يتواصلون عبر الهواتف التي تعمل عبر الأقمار الصناعية،بعيداً عن رقابة النظام، مما سمح بتنظيم التجمعات بشكل أكثر فاعلية. على الرغم من ذلك، كان النظام سريع الاستجابة، حيث كان يرسل الشبيحة فور ورود أي بلاغ عن خروج مظاهرة.

بقينا في حلب حتى عام 2015، وخلال عملي في 2014 كنت أتنقل بين المدينة والريف بشكل رسمي مستخدمًا سيارتي لنقل الأدوية. كنا نحاول التحايل على الحواجز لإيصال الدواء إلى الريف، حيث كان الناس بحاجة ماسة إليه، وكان ذلك أيضًا مصدر رزقي. حتى عندما أُغلقت مداخل حلب تماماً، كنت أسلك طريق بستان القصر لجلب الأدوية من المنصورة.

من عام 2012 وحتى أواخر 2015، وبالتحديد حتى الشهر العاشر، كنت أعمل تحت ضغط نفسي هائل، حيث كنت أذهب إلى الريف محملاً بالأدوية التي كانت قيمتها تصل أحيانًا إلى مليون أو مليون ونصف ليرة، وكانت على حساب المعمل. لكن عند عودتي، كان علي استعادة الأموال، وسط ظروف أمنية شديدة التعقيد. خلال تلك الفترة، زادت الحواجز والتفتيش، وبرزت تهديدات جديدة مثل تنظيم داعش وجبهة النصرة، حيث تعرضنا للتوقيف عدة مرات، وكادوا يصادرون الأدوية. بفضل الله، نجونا من مصادرة أي شيء، لكن عمليات التفتيش كانت مرهقة، فقد كانوا يدققون في كل شيء، حتى في أمور مثل حمل السجائر، والحمد لله أنني لم أكن مدخناً.

استمررت في عملي رغم كل هذه التحديات لمدة ثلاث إلى أربع سنوات، مواصلاً نقل الأدوية وتأمينها لمن يحتاجها، رغم كل المخاطر والصعوبات التي واجهتها يومياً.

بعد أن سيطر النظام على حلب، لم يعد هناك طريق للوصول إلى المدينة إلا عبر المنصورة، كنت أضطر لقطع مسافة 100 كيلومتر للوصول إلى المستودع، رغم أن المسافة الفعلية لا تتجاوز 5 كيلومترات، بسبب الطرق المقطعة والمخاطر الأمنية.

كان يومي يبدأ صباحاً ولا أعود إلا مساءً، ومع حلول الليل كان الطيران يحلق في الأجواء، وتعرضنا عدة مرات لغارات جوية. الحمد لله، نجونا من الموت رغم أن الصواريخ والبراميل المتفجرة كانت تتساقط أمامنا، في إحدى المرات، كنت برفقة زوجتي، ومرة أخرى كنت مع خالتي والأطفال، عندما أغارت طائرة حربية علينا في طريق الليرمون، وأجبرتنا على التوقف بعنف كاد يقلب السيارة.

مع اشتداد المخاطر في أواخر 2015، قررت عدم النزول إلى المدينة والبقاء في كفر حمرة، حيث كنت أعمل وأملك مستودعاً للأدوية في قبو بنايتي. أفرغت القبو واستثمرت الحوش السفلي لتخزين الأدوية. معمل بركات توقف عن التوريد، فبدأت بجلب الأدوية من معمل آسيا القريب مني، وتوزيعها في الريف الشمالي، الذي كان لا يزال مفتوحاً حينها. كنت أوصل الأدوية إلى منبج، مسكنة، ودير حافر، لكن مع سيطرة داعش على تلك المناطق، زادت المخاطر، فاضطررت للتوقف عن الذهاب إلى هناك مباشرة. بدلًا من ذلك، كنت أضع الأدوية في مناطق أخرى، وأخبر الزبائن أنه لا يمكنني تسليمهم شخصياً، وعليهم استلامها من تلك النقاط.

كان بعض الصيادلة الذين أتعامل معهم يعيشون في مناطق سيطرة داعش، وكانوا متأقلمين مع الوضع هناك. عندما كانوا يحتاجون الأدوية، كانوا يحصلون على إذن للخروج لشرائها، فأوفر لهم الفواتير ويأخذون الأدوية من مناطق سيطرة الجيش الحر، ثم يتركون لي ثمنها. لكن بسبب خلفيتي الإسلامية وانتماء العديد من الصيادلة الذين أعرفهم لجماعة الإخوان المسلمين، التي كانت عدوًا لداعش، تعرضت لمواقف صعبة هناك. في إحدى المرات، أوقفوني في دير حافر، وعندما سألوني عن تهمتي السابقة، قلت إنها "إسلامية" دون تفصيل، خرج أحد عناصرهم واتهمني بأنني من "السلفية الإخوانية" التي يجب القضاء عليها، لكنني التزمت الصمت حتى مر الموقف بسلام، والحمد لله.

في أكتوبر 2015، بدأ القصف الروسي بشكل غير مسبوق، حيث كانت طائرات "السوخوي" تحلق بكثافة، كانت زوجتي وأطفالي يعيشون في رعب دائم، خاصة أن منزلي كان طابقًا واحداً مع بناء إضافي فوق السطح، مع كل غارة، كنا نحتمي تحت السقفين الأكثر سماكة في المنزل، لأن باقي الغرف كانت ذات سقف واحد، مما جعلها أكثر عرضة للخطر، بقينا على هذا الحال لمدة 20 يوماً تقريباً، حتى ليلة 16 أو 17 نوفمبر، حين وقع الحدث الذي غير حياتي بالكامل، في حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، استيقظنا على صوت طيران، ثم سمعنا انفجاراً هائلاً؛ كانت الطائرة قد قصفت معمل آسيا القريب منا، استيقظت زوجتي مذعورة، وسقطت على الأرض فاقدة الوعي، وتوقف قلبها عن النبض، حاولت إنعاشها بكل الطرق، ضغطت على صدرها بقوة حتى كسرت بعض أضلاعها، وبقيت لأكثر من ربع ساعة أحاول إنقاذها دون أي استجابة. فجأة، فتحت عينيها، لكنها كانت تعاني من تشنج حاد، وابتلعت لسانها، وبدأ الأطفال يصرخون ويبكون، كنت عاجزًا، لا أدري كيف أساعدها أو أين آخذها، رغم أن لدي سيارة، إلا أنني لم أتمكن من حملها، والأطفال لم يكونوا قادرين على مساعدتي.

بعد دقائق عصيبة، بدأت تستعيد وعيها تدريجيًا، وعادت للتنفس، لكنني أدركت أن الوضع لم يعد يحتمل، قلت لها: "إما أن تنزلي إلى حلب عند أهلك في حي الشعار، أو نخرج إلى تركيا".

كنت أعلم أن النزول إلى مناطق النظام بالنسبة لي كان مستحيلًا، لأنني كنت مطلوبًا لديهم، وإن أمسكوا بي فمصيري سيكون مجهولًا. بالإضافة إلى ذلك، حتى لو تمكنت من النزول، فلن أجد عملًا هناك، بينما كنت لا أزال قادرًا على كسب رزقي في المناطق المحررة وإعالة أسرتي.

منذ بداية الثورة وحتى عام 2014، كنت مضطرًا لمراجعة الفرع العسكري كل شهر أو شهرين، حيث كنت أُستدعى لتقديم تقارير عن تحركاتي وعلاقاتي، كانوا يتعاملون معي وكأن لا شيء ضدي، وكأنهم منفصلون تمامًا عن باقي الأجهزة الأمنية، رغم أن رئيس الفرع آنذاك كان إبراهيم عباس، الذي كان مسؤولاً عن الفرع العسكري في حلب، وهو الآن مطلوب بعد أن أصبح مسؤول الفرع العسكري في دمشق.

عندما طرحتُ خيار النزول إلى حلب على زوجتي، أجابت بحزم: "إذا نزلت إلى مناطق النظام، فهذا يعني أنك لن تكون معي، لذا الأفضل أن نذهب إلى تركيا." عندها، اتخذت قراري النهائي بالرحيل.

بدأنا بتجهيز أمتعتنا، وتواصلت مع أحد إخوتي الذي كان لديه سيارة ليساعدنا، كنت أملك سيارتين في ذلك الوقت، لكنني بعت إحداهما خلال فترة التحضير للسفر، وتركت الثانية مع أحد الأصدقاء، حيث كنت لا أزال أفكر في إمكانية العودة للعمل، خاصة أن الطريق إلى تركيا كان لا يزال سهلاً، ويمكن العبور مقابل 100 أو 500 ليرة سورية.

بعدما رتبنا أمورنا، تواصلنا مع الشخص الذي سيساعدنا في الخروج، وأخذنا موعدًا للانطلاق، وهكذا، بدأنا رحلتنا نحو تركيا، حاملين معنا القليل من الأمتعة وكثيرًا من الذكريات والمخاوف حول المستقبل.

أما عن حياتي اليوم، أنا شخص إيجابي، ولا أؤمن بأن هناك شيء مستحيل. لا أعتبر أي عمل صعبًا، فأنا دائمًا مستعد للتعلم والتجربة. على سبيل المثال، لم يكن الدهان من اختصاصي، لكنني دهنت عشرة مهاجع في سجن صيدنايا، تحديداً في جيم يسار، الطابق الثالث. جلب لي مساعد الأمن دهاناً وفراشاً، وكنت أُفرغ كل مهجع بمساعدة رفاقي، حيث كانوا يجهزون المكان ويضعون لي الكراسي لأعمل. لم أكن أعرف الكثير عن الدهان، لكنني اجتهدت وتعلمت أثناء العمل.

عندما خرجت بإخلاء سبيل، كان صهري قد استأجر بيتاً في حي الزهراء، واحتاج إلى شخص لدهانه، كنت أعرف بعض رفاقي من الدهانين، لكنني قررت أن أعمل بنفسي، أخذت معي شخصًا آخر لديه خبرة، وبدأنا العمل معاً، خصوصًا أن البيت كان كبيرًا وصهري كان مستعجلاً.

إلى جانب ذلك، لدي هواية بالكهرباء منذ الصغر. في أحد الأيام، عندما كنت في العاشرة من عمري، حاولت إصلاح ماكينة في معمل والدي، لكنني تسببت في حدوث قدحة كهربائية، مما أدى إلى احتراق القماش القطني واشتعال المعمل بالكامل، بالإضافة إلى احتراق خط الكهرباء في المنزل!. أما عن خبرتي في صناعة الجبنة، فلم أكن أعرف شيئًا عنها، لكنني تعلمت بالممارسة. في عام 1998، حصلنا على حليب تابع للأونروا الخاصة بالفلسطينيين، وكنا قد طلبنا عشرة كيلو، لكن المساعد جلب لنا عشرة أكياس، كل كيس يحتوي على 25 كيلو حليب، كان علينا دفع ثمنها رغم أنها كانت مجانية، ولم نكن نعرف ماذا نفعل بكل هذه الكمية. عندها قررنا تجربة صنع الجبنة، فطلبنا أدوات وبدأنا بالعمل.

أول دفعة صنعتها أعجبت الجميع، رغم أن الحليب لم يكن مناسباً لصنع اللبن بسبب طعمه النشِح، لكننا نجحنا في تحويله إلى جبنة.

بشكل عام، أي شيء يتعطل عندي أحاول إصلاحه، سواء كان كهرباء السيارة أو أي عمل يدوي آخر. لا أتردد في تعلم أي مهنة أو تجربة أي فرصة جديدة، فالمهم هو العمل والاعتماد على النفس.

حالياً كثير من الأشياء تساعدني وتشعرني بالدعم، أنا رجل مسلم، وأؤمن بأن للمسلم هدفًا واضحاً، وهو السعي لإرضاء الله سبحانه وتعالى، لكن للوصول إلى هذه الغاية، هناك وسائل متعددة، والحمد لله، لا أجد صعوبة في التأقلم مع أي ظرف، أنا أعيش ببساطة، بلا تعقيدات، وأحمد الله على ذلك، عندما أضع رأسي للنوم، أنام مرتاحاً، إلا إذا كان هناك أمر يستدعي التفكير، كموضوع يخص رفاقي التدمريين الذين يعملون على إعادة تنظيم "أحرار سجن تدمر"، حيث أتحمل مسؤولية تجميع الأسماء والتواصل مع الأشخاص المعنيين. وفي الليلة الماضية، تلقيت عدة مكالمات لم أتمكن من الرد عليها بسبب انشغالي، انتهى عملي في الساعة 12:00 منتصف الليل، بينما كان أغلب الناس في عطلة يوم الأحد، إلا أنني اضطررت للدوام لمدة 16 ساعة بسبب غياب المحاسب.

منظمتنا، "أحرار سجن تدمر"، أسسناها في تركيا عام 2012، لكننا لم نتمكن من الحصول على ترخيص بالاسم، فأسسنا بدلاً منها "منظمة أنصار المظلومين"، وأنا مسؤول عن تجميع الأسماء فيها. وعندما عدت إلى المنزل، كنت مرهقاً، ولم أستطع النوم مباشرة، فبقيت قلقًا لمدة ساعتين، ثم نمت عند الساعة 2:00 فجراً، واستيقظت عند الساعة 5:00 للسحور وصلاة الفجر. ولله الحمد، أنا ملتزم بالصلاة في المسجد، خاصة الفجر والعشاء، وأحمل مفتاح المسجد، حيث أفتحه وأؤم المصلين أحياناً، بعد الصلاة، ذهبت إلى عملي في المطعم، وعندما وصل المحاسب، سلمته الإيرادات وأتممت مهامي المعتادة.

انتهيت من عملي عند الساعة 8:30 صباحًا، ثم اتصل بي صديقي، وأنا أملك سيارة سرفيس أستخدمها أحيانًا لنقل المرضى إلى المستشفى وإعادتهم، أو لمساعدة العائلات في التنقل. طلب مني أن أوصله من "بيت باليدي تبه" إلى "سيرين تبه"، فقمت بتجهيز نفسي وانطلقت لإيصاله، ثم عدت إلى المنزل حوالي الساعة 10:30 صباحًا، وكنت صائمًا.

منزلي مكون من طابقين، مع غرفتين في الأسفل وغرفتين في الأعلى، وكان خالياً لأن الأولاد كانوا في المدرسة. حاولت أن أرتاح قليلاً، لكنني لم أستطع النوم، فأخذت هاتفي وبدأت بالرد على المكالمات التي فاتتني من الليلة الماضية، واستمررت بذلك حتى الساعة 1:30 ظهراً.

كنت قد صنعت جبنة لصديقي باستخدام 150 كيلو حليب، وهناك زبونان آخران طلبا مني كمية أيضاً، فاستغليت الساعتين اللتين خرجت فيهما من المطعم لإنجاز هذا العمل.. خلال ذلك الوقت، أتممت صنع الجبنة وأوصلتها للزبون في طريقي، ثم وضعت ثمنها في جيبي، وتوجهت إليك مباشرة.

تعرفت على رابطة معتقلي ومفقودي سجن صيدنايا عن طريق ياسين صايل، شاب كان معنا في صيدنايا، وسمعنا أنه كان من المؤسسين للرابطة مع رياض وبعض الشباب، منذ سنتين أو ثلاث، عندما تشكلت الرابطة، اتصل بي وقال: "أبو اليمان، هناك رابطة تعمل على مشروع جبر الضرر وتقديم المساعدة".

هو يعرفني، لكنني لم أكن أعرفه، لأن عدد السجناء في صيدنايا كان حوالي 400 شخص، بينما كنت أتعامل فقط مع حوالي 70 إلى 80 شخصًا، بحكم عملي في توزيع الخضار وإصلاح الأسنان، كنت رئيس جناح، وأتنقل بين الأجنحة الأخرى لمساعدة الإخوة، لذلك كان الكثيرون يعرفونني، لكنني لم أكن أعرف الجميع.

سألت بعض الإخوة عنه، فأكدوا لي أنه هناك، اتصل بي مجددًا وقال: "أنت كنت في صيدنايا، وكنت توزع لنا الخبز، وكنت معروفًا بلبسك الفلت." أكدت له ذلك، فأخبرني عن المنظمة التي يعمل بها، وأنهم قاموا بتأسيسها، وعرض عليّ الانضمام.

بعد ذلك، سألت عن المسؤول عنهم، فقيل لي إنه رياض، وكان في صيدنايا سابقاً، فطلبت ترتيب لقاء معه، وبالفعل، حصل اللقاء قبل حوالي سنة، وتبادلنا الحديث وتعارفنا أكثر.

حضرت ورشة التوثيق الإبداعي هنا في الرابطة، الحمد لله رب العالمين، المعلومات التي تم الحديث عنها سبق أن قرأتها من قبل في صيدنايا، حيث قرأت العديد من الكتب، منها قصة الحضارة لويل ديورانت، التي تتألف من أربع مجلدات، لدي معرفة جيدة بعلم النفس وغيرها من العلوم، لكن الفرق بين القراءة والتعلم من خلال التوجيه المباشر واضح جدًا.

القراءة تمنحك المعرفة، لكنها لا تعوض الخبرة العملية أو التوجيه الأكاديمي، عندما يشرح لك أستاذ متخصص موضوعًا ما، فإنه يقدمه بأسلوب تعليمي يجعل الفهم أعمق وأكثر ترابطاً. على سبيل المثال، كنت على دراية بالحركات الرياضية، لكن عند تلقيها من مختص، أصبحت أرى فوائدها وتأثيراتها بشكل أوضح، وكأنها معلومة جديدة رغم أنني قرأتها مسبقاً.

كذلك، أساليب التفكير مثل العقلي، الذهني، والسلوكي، كنت مطلعاً عليها، لكن دون أن أتمكن من ربطها ببعضها البعض بشكل منهجي، ومع التوجيه العلمي، أصبح من السهل إدراك هذه الروابط وفهم كيفية تطبيقها في الحياة اليومية، فالعديد من الممارسات التي نقوم بها بالفطرة أو العادة، يمكن تفسيرها من منظور علمي عند دراستها بعمق.

لهذا، أرى أن هذا النوع من التعلم الذي أتاحته الورشة لي له قيمة كبيرة، وأقيّمه بنسبة 95%، لأنه يجعل المعلومات أكثر وضوحاً وتطبيقية، رغم أن لدي معرفة مسبقة بها.

الحمد لله، لا يوجد إنسان كامل، والجميع يتعلم من تجاربه، بشكل عام، أنا شخص محب للمغامرة، لكنني لم أعد أحب المواجهة كما كنت في الماضي. قبل 30 أو 40 عامًا، كنت أواجه التحديات بشكل مباشر، أما الآن فأصبحت أتبع نهجاً أكثر هدوءاً وأعمل في الخفاء، كما يقال "تحت الطاولة".

السبب في ذلك هو أن المواجهة المباشرة تخلق الأعداء، بينما يمكن للمرء أن يتجنب الصدامات غير الضرورية، عندما يكون لدي خصم، فأنا أعرف أنه عدوي، وهو يعرف ذلك أيضًا، لكن لا حاجة للتصريح بذلك أو التصعيد. بدلاً من ذلك، ألتزم بقول الله تعالى: "ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم"، فاللطف والتعامل بالحكمة قد يحوّلان العداوة إلى ود، أو على الأقل، يمنعان تفاقم الصراع.

أنا أدرك جيدًا أن عدوي يعرف مشاعري تجاهه، لكنه لن يجد فرصة لمهاجمتي طالما أنني لا أترك له مجالاً لذلك. لأن المواجهة في بعض الأحيان قد تكون غير متكافئة، ومن الحكمة تجنبها إن لم تكن هناك فائدة منها. كما قال الرسول ﷺ: "إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم"، أي أن المداراة قد تكون ضرورية في بعض المواقف.

وفي حلب، لدينا مثل يقول: "اليد اللي ما بتحسن تكسرها، بوسها وادعي عليها بالكسر". وهذا يعكس فكرة أن الحكمة أحيانًا تقتضي التعامل باللين حينما لا تكون المواجهة مجدية، لهذا، أنصح ابني دائمًا بعدم مواجهة الكبار من الآن، فهذه دروس اكتسبتها من تجارب الحياة.

هدفي الأول هو إرضاء الله سبحانه وتعالى، والوسائل لتحقيق ذلك متعددة، لذلك، لا أرفض أي وسيلة طالما أنها تخدم هذا الهدف. على سبيل المثال، إذا جاءني أحدهم بفكرة أو مشروع، فأنا لا أرفضه مباشرة، بل أستمع إليه وأقيمه.

اليوم، على سبيل المثال، تواصل معي أحد الإخوة ليضيفني إلى مجموعة، فإن أعجبتني الفكرة شاركت، وإن لم تعجبني، أضعها على الصامت، دون الحاجة للحظر، إلا في حالات نادرة عندما أكون متأكداً من أن الشخص غير جدير بالثقة، طوال حياتي لم أحظر سوى شخص أو شخصين فقط.

أنا عضو في عدة مجموعات مثل تنظيم حلب، الضباط، إدارة حلب، ردع العدوان، وبعضها أضيف إليها بناءً على طلب الآخرين، أما إذا لم يكن هناك شخص أعرفه أو أثق به في الإشراف، فأفضل عدم الانضمام.

حالياً، أشرف على حوالي عشر مجموعات، وهذا بلا شك يسبب بعض الإرهاق، لكنه في النهاية أمر ممتع بالنسبة لي.

أما عن العدالة لا يمكن أن تتحقق دون قوة، وهناك ثلاث ركائز أساسية لتحقيقها، كما يُدرّس لنا: قوة العقيدة والإيمان، قوة الأخوة والانضباط، قوة الساعد والسلاح، لكن هل هذه الركائز متوفرة فيما نراه اليوم؟.

قوة العقيدة قد تبدو موجودة، ولكن هل هي صادقة وحقيقية؟ هناك من يدّعي التمسك بها وهو لا يصلي ولا يصوم، وقد عايشتُ ذلك بنفسي عندما كنت أوزع الأدوية، حيث رأيت البعض يتعاطى المخدرات أو غيرها من المحرمات، ومع ذلك يتحدثون باسم الدين. رأيت بأم عيني أفراداً من "داعش" يشربون الخمر ويفطرون في رمضان، ومع ذلك يريدون فرض الصلاة بالقوة، حتى أنهم هددوني بالسلاح لمجرد أنني أردت تأجيل الصلاة أثناء السفر!.

أما قوة الأخوة والانضباط، فهي الأساس في أي جماعة تسعى للعدل، لكنها مفقودة حين يصبح المسلم يتربص بأخيه، وينتظر سقوطه بدلًا من دعمه. كيف يكون هناك عدل إذا كان المسلم يتآمر على أخيه بدلاً من التماسك معه؟ وأخيرًا، قوة الساعد والسلاح وحدها لا تكفي، إذا لم تكن مدعومة بعقيدة صحيحة وأخوة حقيقية. فلا قيمة للسلاح بيد من يفتقد العقيدة، ولا قيمة للعقيدة إذا كان أصحابها متفرقين. إذا لم تجتمع هذه العناصر الثلاثة، فلن يكون هناك عدل حقيقي، بل سيكون هناك "عدل المتغلب"، حيث يفرض الأقوى شروطه، دون أن يكون هناك ميزان حقيقي للحق والإنصاف.

لدي آمال كثيرة، وآمالي هي آمال كل إنسان مسلم، الحمد لله، لست مدينًا لأحد، ولا متديناً بشكل متكلف، وإنما أعيش ديني كما أفهمه، بما لي من حقوق وما عليّ من واجبات، أمنيتي أن ألقى الله عز وجل وليس لأحد في رقبتي مظلمة، وألا يُقال عني أنني قصّرت في حق من حولي.

أرى أن المسلم الحقيقي هو من يحقق خلافة الله في الأرض، وأهم قاعدة في الحياة هي: "ازهد بما في أيدي الناس يحبك الناس." فالناس بطبيعتها تميل إلى من لا ينافسها على الدنيا، أما من يتصارع معهم عليها فسيخسرهم لا محالة، خاصة في هذه المجتمعات التي أصبحت بعيدة عن روح الإيثار التي عاشها الصحابة، حيث قال الله في وصفهم: "ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة." أما اليوم، فقد انقلب الحال وأصبح العكس هو السائد.

منذ يومين اجتمعنا مع بعض الإخوة، كنا حوالي 30 أو 40 شخصاً، ودار بيننا نقاش حول ما يجب أن نفعله وما يمكن أن ننجزه. قلت لهم: نحن سجناء تدمر لنا ميزة فريدة أينما ذهبنا، لقد كنّا قرابة 4000 شخص، وما زلنا نجمع شملنا، ونحن نتحلى بصفات وصف الله بها الرجل القوي الأمين، كما في قصة سيدنا موسى عليه السلام.

أينما حللنا، نجد أن الناس تحبنا رغم خوف البعض من انتمائنا السابق، لأنهم يعلمون أننا لا نمدّ أيدينا إلى حقوقهم، ولا نتعدى على أعراضهم، ولا نتلفظ بالكلام البذيء، وهذه قيم نادرة في المجتمعات اليوم.

لذلك، أينما ذهبنا كنا محبوبين، وإذا فُتح لنا المجال لنمارس دعوتنا ونعمل لديننا بإخلاص، فسنكون مؤثرين. الإسلام دين العدل والوسطية، كما قال الله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) فلا داعي للاستعجال، فالأوضاع الحالية لا تساعد على تحقيق كل ما نطمح إليه، لكن الذخيرة التي نملكها، سواء كانت علمًا أو تجربة أو إيمانًا، يجب أن نحفظها لوقت يكون فيه المجال مفتوحاً، وحينها سنجدها أنفع وأعظم أثراً.

أسأل الله أن يمد في أعمارنا على طاعته، فقد قال النبي ﷺ: "خيركم من طال عمره وحسن عمله." كثير من الناس يتمنون الموت، أما أنا فلا، بل أسأل الله أن يبارك في عمري لأزداد في الخير والثواب.

وإن شاء الله، إذا كتب الله لنا العودة إلى سوريا، فأنا عازم على الرجوع، لقد اشتريت بيتًا هنا، ولدي أيضًا منزل في كفر حمرة، أبنائي ما زالوا مترددين في مسألة العودة، فقلت لهم: ابقوا هنا، وأنا سأرتب أموري أولاً، ثم أنزل لإدارة شركتي في مجال الأدوية، وسأتنقل بين هنا وهناك إن شاء الله.

رسالتي إلى المسلمين عامة، وإلى السوريين خاصة، ولكل من يقول "لا إله إلا الله" أن يتقي الله أولاً في نفسه قبل أن يطلب التقوى من غيره.

دائمًا أقول لأصدقائي: الإنسان مثل الكأس، إما أن يملأه بالخمر فيفسد، أو بالحليب فيطهر، والأمر بيده، فإما أن يترك أثراً طيباً يُذكر به بعد رحيله، أو أن يكون ممن يُقال عنهم: (الله لا يرحمه، كم كان كاذباً!).

لا إله إلا الله كلمة عظيمة، حملها الإنسان رغم أن السماوات والأرض والجبال أبت أن تحملها، كما قال الله تعالى: "إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا." وهذه مسؤولية عظيمة، فكيف يكون الإنسان مسلمًا يصلي ثم يكذب، أو يشرب الخمر؟!.

على المسلم أن يكون صادقًا، مخلصاً، مثابراً، يسعى للخير، ويفكر في مصلحته لا في مصلحة غيره فقط، الحياة الكريمة لا تُبنى بالكذب، فالكذب حبله قصير، ولا تُصان بالسرقة، فاللص لا بد أن يُقبض عليه يوماً.

الإسلام هو الدين الذي يحمي الأقليات ويحفظ حقوق أهل الذمة، فقد قال النبي ﷺ: "من آذى ذمياً فقد آذاني." وهذه رسالة عظيمة نحملها، نسأل الله أن يهدينا ويهدي الجميع إلى الحق والخير.

في الختام أود أن أقول بشأن بلدي سوريا، إن شاء الله، الولادة قد وقعت، ولكن كما يقال، الولادة يسبقها مخاض، والناس تستعجل الأمور. الصبر جميل، والطريق طويل، لكن نهايته بإذن الله خير. نحن لم نرَ النور في آخر النفق بعد، ولكن إن واصلنا المسير، ولو ببطء، سنراه يسطع أمامنا. فالشمس لا تُخفى بالكف، والنور لا يمكن حجبه، وإذا كان هذا النور ربانياً، فلا شك أنه سيهدي كل إنسان إلى هدفه.

من أراد الله، وجده، ومن لم يرده، فذلك شأنه. نحن نحمل رسالة وهدفاً، والمسلمون جميعًا يشتركون في ذلك، فغايتنا الله، وقدوتنا الرسول ﷺ، ودستورنا القرآن. حتى من لا يصلي، يقول: "الله غايتي"، وقد يهديه الله يومًا.

أذكر أخاً كان يجالس رفعت الأسد ويشرب الخمر، حتى إن رفعت كان يلقبه بـ "حج بطحة". لكنه دخل معنا السجن، وتاب، وحفظ القرآن، وأقلع عن كل ما كان عليه، وقال: "أين كنت؟ كيف كنت أعيش؟". فالمسلمون قلوبهم طيبة، مهما بدت منهم مظاهر سيئة، وهناك دائمًا مجال للتوبة والرجوع إلى الله.

بالأمس كنا نتحدث عن قضية المخبرين، فهناك مخبرون بدافع العقيدة، وهؤلاء خطرهم كبير لأنهم مقتنعون بما يفعلون، وهناك مخبرون بدافع المصلحة، لا يتحدثون إلا عند الضغط عليهم، وهناك مخبرون بسبب الخوف، يُجبرون على الكلام في السجن أو تحت التهديد. لا يمكن أن نحكم على الجميع بنفس الميزان، بل يجب أن نفرّق بينهم. إن كانت أمريكا تكيل بثلاثة موازين، فعلينا أن نكيل بعشرة، لأن أحوال الناس وظروفهم تختلف.

النور قد بدأ يظهر في أول النفق، لكنه يحتاج إلى الصبر والتأني. تمامًا كما لو كنت تقود سيارة في طريق ضيق، والنور في نهايته، فإن الإسراع قد يؤدي إلى حادث، لذا عليك السير ببطء حتى تصل. أما عندما تبلغ النور، فحينها يمكنك الانطلاق بسرعة، لأن الطريق سيكون أمامك مفتوحاً.

جزاكم الله خيرًا على هذه المبادرة الطيبة، في الحقيقة، لم أكن أنوي المشاركة في البداية، وقلت للشباب إنني لن أشارك، لأنني لست بحاجة إلى نسخة إضافية عن حياة الإنسان.

مذكراتي لا أعطيها لأحد إلا إذا كنت متأكداً من أنها ستترجم إلى لغات أخرى. لدي الكثير من الأحاديث الطويلة والفرص ما زالت متاحة، فإذا أمدّ الله في عمري وجلست متفرغًا، فقد أكتب شيئًا شيئًا وعلى مهل.

الكثير من رفاقي كتبوا، لكنهم وضعوا كتبهم جانباً ولم تنتشر كما ينبغي. قبل أيام، أخ كان في كِلس أخبرني أنه كتب كتاباً من 260 إلى 270 صفحة، ومع ذلك لم يأخذ حقه من الاهتمام.

رابطة معتقلي و مفقودي سجن صيدنايا
Association of Detainees & The Missing in Sednaya Prison